الخاتمة

ليس بالشورى وحدها

من السمات البارزة لهذا البحث، سعيه ـ من أوله إلى آخره ـ إلى بيان أهمية الشورى في الحياة الإسلامية بجميع جوانبها ومستوياتها وقضاياها، وأن جميع الناس مخاطبون بالشورى، ومدعوون للأخذ بها، وأن ذلك يمثل مصدراً كبيراً لرشدهم وحفظ مصالحهم...

وإذا كانت هذه الفكرة قد تم استحضارها والدفاع عنها بما يكفي لإنصافها وإعادة الاعتبار لها، على الأقل من الناحية العلمية والنظرية، وانتهى ذلك إلى بيان الوظيفة الإصلاحية والنهضوية للشورى، وكيف يمكن السير نحو تحقيقها. فقد آن الأوان لكي نتذكر ونقول: **ليس بالشورى وحدها!**

إن الشورى جزء من الدين، وجزء من الشريعة، وجزء من المنظومة الإسلامية المتكاملة. ولن تحقق هذه المنظومة أهدافها على الشكل الأكمل والأمثل، إلا بتشغيل جميع أجزائها، أو أنظمتها الجزئية. وكما أن الاختلال في أي جزء ينعكس سلباً على فاعلية الأجزاء الأخرى، فإن العكس بالعكس أيضا.

فالشورى حين يتم تطبيقها وممارستها ضمن منظومة من جنسها، وضمن أجواء ملائمة لها ومساعدة على حسن أدائها وتحقيق مقاصدها، هي غيرها حين تتم ممارستها في أجواء معاكسة أو معيقة أو غير مساعدة.

لقد سبق ـ على سبيل المثال ـ أن تحدثت عن مدى الحاجة إلى الأخلاق والضوابط الخلقية في ممارسة الشورى، وفي ممارسة الديمقراطية من باب أولى. وكثيراً ما يتحدث بعض فضلاء السياسيين [1] اليوم عن ضرورة تخليق الممارسة الديمقراطية، وتخليق الحياة

(1) أقول "بعض الفضلاء السياسيين" لأن كثيراً من السياسيين يصرحون بأن لا مكان للأخلاق في السياسة، وأن السياسة شيء والأخلاق شيء. ومن لا يصرحون بهذا، فإن سلوكهم ناطق به. والفعل أبلغ من القول!

العامة. وأنا أقول: إن تخليق الحياة العامة لا ينفك عن تخليق الحياة الخاصة. والتخليق لا ينفك عن التثقيف الملائم له والمساعد عليه. والتثقيف بلا تخليق يجعله أقرب إلى الترف أو العبث، كما قيل قديما "وعلم بلا تقوى سراب على القفر".

وحتى لو نجحنا في إقامة نظام الشورى، وعملنا به في وسط غير متخلق وغير منضبط بضوابط مترسخة ومتعالية، فلا يبعد أن يتحول هذا النظام الشوري إلى مجرد أداة للصراعات والمناورات، وميداناً للشد والجذب والجدل العقيم.

وهنا يمكن أن نضيف إلى "**الشورى المعلمة**" و"**الشورى الملزمة**" صنفاً ثالثاً هو "**الشورى المؤلمة**"، وهي التي لا تنتج إلا الخصومات والحزازات والأوجاع.

وقد تتحول الشورى والمؤسسات الشورية وسيلة للمكاسب والمناصب وقضاء المآرب.

وقد تصبح مرتعاً خصباً للتكتلات والتحالفات والصفقات السياسية وغير السياسية، لفائدة الحزب، أو الطائفة، أو العائلة، أو فلان وبني فلان، أوالجناح الفلاني...

وقد تتخذ مجرد غطاء أو وسيلة للاستبداد والاستعباد، والتلاعب والتآمر...

فحتى فرعون وملؤه، كانوا يتشاورون في بغيهم وفسادهم، كما حكى القرآن الكريم ذلك في غير موضع منه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝١١٠ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[1]، وفي موضع آخر: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥﴾[2].

وحتى إخوة يوسف، فإنهم قد تشاوروا، ولكن ليتآمروا. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ

(1) سورة الأعراف، ١٠٩-١١٢

(2) سورة الشعراء، ٣٤ ـ ٣٥

أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.[1]

فالشورى الصالحة، إنما يمارسها قوم صالحون، بنية صالحة وسلوك متخلق قويم. وإنما ينجح ذلك ويثمر، ويتعزز ويستمر، بقدر ما له من محيط ثقافي اجتماعي يغذيه ويقويه، ويحميه ويبقيه. وإذا كانت إقامة الشورى شيئاً مهماً، فإن الأهم هو الاستمرار فيها والدوام عليها، وتحقيق حقيقتها.

والشورى كذلك لا تنجح ولا تستمر إلا في ظل الحرية وأجواء الحرية: **حرية الضمير، وحرية التفكير، وحرية التعبير.**

في مناخ الحرية، يفكر الناس ويعبرون بلا خوف ولا رهبة، وبدون آصار وأغلال، وبدون هواجس ولا احتياطات. وفي مقدمة من يحتاجون إلى هذا كله، أهل الشورى.

والشورى بدون حرية حقيقية، لا يمكن أن تتم. وإذا تمت فلا يمكن أن تستمر، وإذا استمرت فليست هي هي، وإنما هي أسماء وأشكال ورسوم...

وأما في ظل الحرية، فيصبح الجميع أهل شورى، حتى لو لم يكونوا أعضاء في مجالس الشورى. فإنما الشورى نصيحة تبذل، ويجب بذلها لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم". [2] وعن جرير رضي الله عنه قال: "بايعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم." [3]

---

(1) سورة يوسف، ٧-١٥

(2) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

(3) المرجع السابق.

وهنا يأتي الدور الخاص والمتميز للعلماء، ولأهل العلم والفكر والرأي بصفة عامة، فهم جميعا مدعوون إلى تقديم مشورتهم ونصيحتهم، سواء طُلبت منهم أم لم تطلب. وهم جميعا يشكلون مددا وسندا لأهل الشورى المعينين المخصوصين. فهم أهل شورى غير مباشرين، وغير رسميين، لجميع الولاة والمسؤولين، بل لعموم أمتهم ومجتمعهم.

وأختم هذا البحث وخاتمته بهذا النموذج من الرعيل الأول، هو نموذج للمشورة، وللمستشير، وللمستشار، نموذج لأئمة المسلمين وعلمائهم الناصحين المخلصين. وهو يتعلق بعمر، وبأحد أعضاء مجلس شورى عمر. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القُرَّاء أصحابَ مجالس عمر ومشاورته، كهولا كانوا أو شبانا. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال فأَسْتأذِن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هِيْ يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله."[1]

في هذا النص تتزاحم معانٍ ودروس كثيرة في موضوعنا:

منها: بعض صفات أهل الشورى، كالعلم والحلم، والنصح والتنبيه لولي الأمر.

ومنها: أن المستشار ـ وغيره من أهل البطانة ـ يكون في خدمة عامة الناس، ويكون همزة وصل ـ لا همزة قطع ـ بينهم وبين ولاتهم.

ومنها أن المستشار يلتمس الأعذار والمخارج للناس من إساءتهم وسوء أدبهم، ويدفع الأمير إلى التجاوز والعفو عنهم، بدل دفعه إلى معاقبهم والانتقام منهم.

(1) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومنها أن هذا العفو وعدم الزجر ولا العقوبة، يشجع عامة الناس على الكلام، وعلى تقديم شكاويهم وملاحظاتهم وانتقاداتهم ونصائحهم، دون رعب أو خوف. مع العلم أن سوء الأدب سيزول إذا قُوبل بحسن الأدب﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [1]. وتشجيع الناس على الحرية والصراحة ـ ولو مع قلة أدب أحيانا ـ أولى من تشجيعهم على التملق والنفاق...

ومنها: أن عمر رضي الله عنه كانت له مجالس للشورى، وكان أهلها وأعضاؤها من أهل العلم، كهولاً وشباناً.

ومنها أن عمر كان يختار بطانته من الناصحين المخلصين ويُدْنيهم ويحيط نفسه بهم.

ومنها أن الأمير يقبل من مستشاره وناصحه، بلا تردد ولا تمنُّع ولا تكبر، خاصة إذا كانت نصيحته لله، ونابعة من كتاب الله.

فرضي الله عنهم جميعاً ونفعنا بعلمهم وعملهم ونهجهم، آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

صبيحة الجمعة السابع من رجب ١٤٢٦هـ
(١٢ غشت ٢٠٠٥م)

(1) سورة هود، ١١٤

obeikandl.com

obeikandl.com